عبرة وذكرى

فاجعة بيروت فجر يوم الخميس في ٣٠ مايو سنة ١٩٠١

صاحِ قِف بي فوق الحصى والجنادلْ ... وقفةَ الآسف الشجيِّ الثاكلْ
هيِّ واستنطقِ الطلولَ وسائلْ ... يا تُرَى أين أهلُ هذه المنازلْ
لا ديارًا أُرسى ولا دُيُورًا ... كلها اصبحت هبًا منثورا
يا لها نكبةً تدقُّ الصخورا ... بل تردُّ الحديدَ كالماء سائلْ
رُزءُ فجر الخميس ببيروتَ ذكِّرْ ... بمصابٍ سهامها قبل فطِّرْ
في كلا الحادثين اهوَلُ منظر ... لاح للعين عند ما انقضَّ ماثلْ
غير ان الاخير عنديَ اعظمْ ... وهوَ عند الجميع ايضًا مسلَّمْ
بين هذا وذاك فرقٌ ومَن لم ... يقتنع بالمقول دعهُ يقايلْ
خَطْبُ يوم الخميس آلمُ خطبِ ... هولهُ عمَّ مُدْمِيًا كلَّ قلبِ
وبيروت حاق شرقًا بغربٍ ... وجنوبًا اصابها وهو شاملْ
ذلك الفجرُ لم يكُنْ قطُّ فجرا ... فهوَ باسم الظلام اولى وأحرى
وجههُ كان باسرًا مكفهرًّا ... من حُلى النور جيدهُ كان عاطلْ
غَشِيَ الغمُّ كلَّ وجهِ السماء ... هكذا كان من سما الاربعاء
اذ تبدَّى فيهِ لعينِ الرائي ... بدرهُ عادمَ الضيا متضائلْ
وكأني بهِ اتاهُ نذيرُ ... بمُصابٍ تشيب منهُ الشعورُ
واعتراهُ خوفٌ شديدٌ كبيرُ ... فدجا وهو طالعٌ غيرُ آفلْ
أنصف الليلُ والعيون تملتْ ... سُهُدًا وعُرى الافاقة حلتْ
وجميع الجسوم للدأب ملت ... وغدا كلها الى النوم مائلْ
هكذا نام اهل هذي البيوتِ ... مثل باقي السكان في بيروتِ
بسكونٍ وراحةٍ وسكوتِ ... رقدوا والسلام للكل شاملْ
ليس فيهم مَنْ ظنَّ أنَّ كراهُ ... ذلك الليل ينتهي برَداهُ
علَّلَ النفسَ بالصباح يراهُ ... مستنيرًا الى النهار الكاملْ

هوذا الآن آخر الليل . إستمع كيف ناقوس ساعة البرج يقرع
كُفَّ قرعًا بين اثنتين وأربع فثلاثًا اذًا يكون الحاصل

أنظر البدرَ مالَ نحو الغياب وهوَ قد ماط عنهُ سجفَ السحاب
فتبدَّى انا بمجلى اكتئاب أصفرَ الوجه شاحبَ اللون حائل

رامَ إرسالَ نورهِ ليصافح أهلَ ذاك الحمى صفاحَ البارح
فسرى منهُ نحوهم وهو فاتح في حماهم باب الهلاك العاجل

ونسيمُ الصبا يهبُّ بليلاً قارصًا للخدود شيئًا قليلاً
وهوَ قد كان قاصدًا تقبيلاً فانثنى عنهُ خائبًا غيرَ قابل

حالت الامَّهاتُ دون مناهُ وحجبنَ الاولاد عن مسراهُ
خفنَ أن تُدميَ الخدود يداهُ فجعلنَ الدثار اعظمَ حائل

أصغِ تسمع صوتًا دوى مثل رعدِ بغتة قاصفًا ! اذًا صوتُ هدِّ!
وبهِ الجوُّ بات يدوي ويصدي ولقد أرجف الثرى كالزلازل

وعلى إثرهِ عويلٌ عالٍ ونداء استغاثةٍ متوالٍ
وصراخٌ كلَّ السامعِ مالٍ واختلاط وحاوحٍ وولاولٍ

كان هذا الصراخ بضعَ ثوانٍ وانقضى صوتهُ من الآذانِ
وأُلو الصوتِ مثل هذي المباني أودعوا جعبةَ الزوالِ الزائل

هُدِمَتْ تلكمُ المنازلُ هدما وغدَت عينها على الفور رسما
وأوى اهلها المساكين ردما فوقهم جرَّ للفناء ذلاذل

صاحِ انظرْ في الشرق شمس الخميسِ أقبلت تجلي انجلاء العروسِ
بضياها طابت جميع النفوسِ راتعاتٍ من رغدها في خمائل

كلُّ فردٍ من اهل دار الصفاء قرَّ عينًا من الضحى بضياء
نال منها حرارةً مع نماء وانتعاشًا لهُ المسرَّةَ كافل

ما عداكم يا أهل هذي القبورِ قد خبطتم في ظلمة الديجورِ
ليس فيكم مَن فاز منها بنورِ مثلما كان عند ما نامَ آمل

انَّ شمسَ الخميسِ لمَّا تبدَّت شاركت في الاسى عليكم وحدَّت
وسحاباً كالبدر ايضاً تردَّت وعليكم بكاؤها متواصلْ

عمَّ صوت النعيِ كلَّ الاهالي فتجارى سوادهم في الحالِ
واتى حضرة الرشيد الوالي مع فريقٍ من رهطهِ والقناصلْ

وقفوا كلّهم على الانقاضِ بصدورٍ ملأى دواعي انقباضِ
ونفوسٍ تشعُّ نارَ امتعاضِ وقلوبٍ فراغها الغمُّ شاغلْ

لم يغظهم يا صاحِ أنَّ القصورا اصبحت صفصفاً وباتت بورا
بل لأنَّ القصورَ صارت قبورا وبأشلاء ساكنيها اواهل

وابتدا الحفر عاجلاً بالفؤوسِ عن خبايا النفوسِ لا عن "فلوسِ"
جثثاً أُخرجَت كما من رُموس فوقها الموت شاربٌ وهو آكلْ

ويح قلبي على نفوسٍ بريَّهْ ودماءٍ بالحقِّ كانت زكيَّهْ
ضحيت فوق مذبح الاشعبيَّهْ وبها شحَّ غيرها كان ناكلْ

أخرجوها من جوفِ تلك الجلامدْ مشهداً للتمثيل شرَّ المشاهدْ
هذهِ أرجل وتلك سواعدْ بينها القطع فاصل غير واصل

ذاك قطعٌ بهِ وذلك ثرمُ وبهذا جدعٌ وفي ذاك صَلَمُ
ما عليها من السلامة رسمُ بل عليها التشويهُ ساطٍ وهائلْ

يا ضحايا التقتير هل من يجودُ منكمُ بالسؤالِ عما اريدُ
اعلموني فانني مستفيدُ عن امورٍ لها انا الآن جاهلْ

اي رعبٍ ترى يكون اعتراكم اذ عليكم للردم بات تراكمْ
وانجحبتم عنّا فما إن تراكم غيرُ عينٍ برأيها الكل داخلْ

أخبرونا بما تراءى لديكمْ حين هُدَّت تلك القصور عليكم
والمنايا في الحالِ خفَّت اليكم واستعدَّت لقنصكم بالحبائلْ

ما فعلتُنَّ ايها الامهاتُ بالصغار الذين معكُنَّ باتوا
هاهمُ الآن متلكنَّ رفاتُ ليس فيهم على الحياة دلائل

كَم ملاك بادٍ بصورة طفلٍ فوق الموت نحوهُ اي نبلِ
مات لكن قتلاً ! نعم شرّ قتلٍ سامح الله من لهم كان قاتلْ
كم فتى بالحياة عالٍ نفسهْ فأوى وهوَ ناعمُ البال رمسهْ
ما أراهُ الخميس يا قومُ شمسهْ بل عليهِ بنورها كان باخل
كَم فتاةٍ باهي الجمال اليها كان يعزى والحسنُ وقفاً عليها
صوّحت زعزع الردى وجنتيها فغدا ورد خدّها الغضن ذابل
كان ما امّلت سحابة صيفٍ أقشعت وانقضت سريعاً كطيفِ
وفراها مُصابها فَزيّ سيفٍ ارهفت حدّهُ اكفُّ الصياقل
يا حمام الحمى ابكي معنا وردّدْ ندب اهل الحمى وما شئت عددْ
نُحْ ورجّع واسجعْ و بالمدر اسعدْ قلبَ باكٍ على النكابة عاملْ
وابكِ من اهلهِ على غربائه امهات بنين مع آباء
ما لهم في بيروت من انسباء ولهذا الباكون كانوا قلائلْ
وارثٍ امّاً لما قضت ولداها قَضيا مع ذي الالم لم يتركاها
طوّقتها ايديهما ويداها بهما حفّا محفّاً كاملْ
يا نفوساً بها المقدّر أردى وهي تُربي على الثلاثين عدّا
وبأمن سارت الى حيث تهدى راحةً لا يشوبها من قلاقلْ
عبرة خطبكِ الملمّ وذكرى لنفوسٍ بحالها اللهُ ادرى
لنفوسٍ سكرى وما هيَ سكرى بل عليها الغرورُ مُرْخٍ سدائل
فليكن ذا المُصابُ خيرَ خطيبٍ منذرٍ بانقضاضِ شُهب الخطوبِ
واللبيبُ اللبيبُ كلُّ منيبٍ مُرْعوٍ تائبٍ رضى اللهِ نائلْ
فلنبادر اليهِ في الحال نلق منهُ عوناً طبقَ المرام ورفقا
ذاك خيرٌ لنا جميعاً وأبقى فهنيئاً لمن الى الله راحل
واذا انهدّ بيتنا الارضيُّ فلنا في السماء بيتٌ بهيُّ
غير مصنوعٍ من يدٍ ابديُّ ذاك اسنى البيوت أسمى المنازل

اسعد داغر